

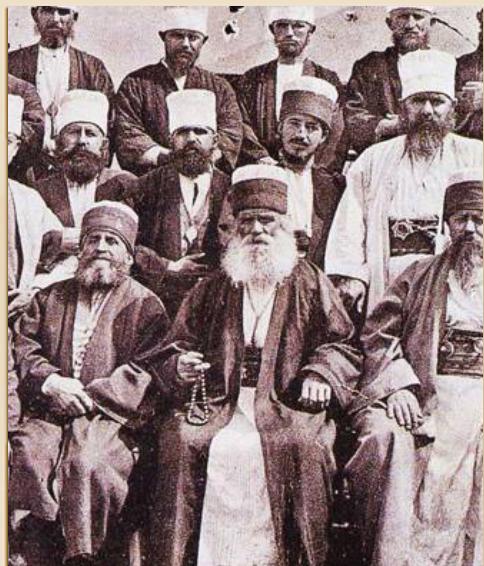
مخطوطات تاريخية

تسبيس الروح: البوكتاشية والإإنكشارية من الذكر إلى الولاء والسلطة

تاريخ الدولة العثمانية يقدم مثلاً كاشفاً على الكيفية التي يمكن بها أن تحول التجربة الروحية من مجال تزكيةٍ فردية وجماهيرية إلى أداة ولاءٍ سياسي، ثم إلى تهمةٍ تدفع بها جماعةٍ كاملة ثمن صراع الدولة على السيطرة. وتأتي علاقة البوكتاشية بالإإنكشارية في قلب هذا المثال: حيث تدخلت الرموز الصوفية مع مؤسسة السلاح، فصار “الذكر” جزءاً من هندسة الانضباط العسكري، وصارت “الطريقة” شبكة حمايةٍ ونفوذ، ثم انتهى الأمر إلى قطبيةٍ دموية حين قرّرت الدولة قطع الجسر بين الروح والسلاح.

تعود البوكتاشية في أصولها إلى المجال الأناضولي المرتبط باسم حاجي بكتاش ولوي (القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي)، ثم

تطورت عبر قرونٍ داخل بيئَةِ عثمانية شديدة الحساسية تجاه توازنات المذاهب والطرق. ومع اتساع الدولة وتكون جيشها النظامي، برزت الإإنكشارية بوصفها نخبة المشاة، ذات تنظيمٍ صارم وامتيازاتٍ اجتماعية وسياسية مت坦مية. في هذا السياق نشأت صلةٌ مخصوصة بين الإإنكشارية والبوكتاشية، ليست مجرد “تقارب روحي”， بل تماسٌ مؤسسي: فالطريقة قدّمت إطاراً رمزيًا للتماسك والهوية، والجيش قدّم للطريقة حمايةً وانتشاراً وموقعًا معتبراً داخل الدولة.



كانت الروحانية هنا تؤدي وظيفةً مزدوجة: تُعطي الفرد معنىًّا فوقياً للانضباط والطاعة، وتُعطي الجماعة طقساً يوحد القلوب تحت لواء «الأخوة» و«العهد»، بما يجعل الولاء يتجاوز القائد العسكري إلى منظومةٍ رمزيةٍ واسعة. وحين تُدمج الرموز الدينية في جهاز السلاح، يتغير مفهوم السلطة: فليس المطلوب فقط طاعة الأمير، بل طاعة «المعنوي» الذي يرثّ الامتيازات ويحصّنها. وهذا تحولت العلاقة بحكم الزمن—إلى تواشج نفوذ: الإنكشاري يجد في الرابطة الروحية غطاءً اجتماعيًّا وهويًّا جمعيةً، والبكتاشي يجد في المؤسسة العسكرية سنداً ضد خصومه من فقهاء أو طرق منافسة، أو ضد تقلبات المزاج السياسي.

غير أن هذا التزاوج بين الروح والسلاح لا يبقى بريئاً طويلاً. فالإنكشارية، التي كانت في بداياتها عمادَ توسيع الدولة، تحولت تدريجياً إلى قوّة مقاومة للإصلاح، تعرّض على تحديث الجيش وتقليل امتيازاته. ومع مطلع القرن التاسع عشر تصاعدت حاجة الدولة إلى جيشٍ جديدٍ على النمط الأوروبي، فدخل السلطان محمود الثاني في صدامٍ حاسمٍ مع الإنكشارية. وفي يونيو/حزيران 1826 وقع الحدث المفصل المعروف بـ«الواقعة الخيرية» (Vaka-i Hayriye): تم قمع تمرد الإنكشارية بعنفٍ شديد، وُضربت ثكناتهم بالمدافع، وُقتل وأعدم وأُبعد عدد كبير منهم، وأُلغى الفيلق رسميًّا ليُستبدل بقوّة عسكرية جديدة.

لكن ما يهمّنا هنا ليس نهاية الإنكشارية فقط، بل ما تلاها مباشرةً: امتدّ منطق الإلغاء إلى البكتاشية بوصفها «الظل الروحي» للمؤسسة العسكرية الملاحة. فالدولة، وهي تعيد تشكيل مركزها الصلب، رأت في استمرار الطريقة خطراً رمزيًّا وسياسيًّا: شبكة اجتماعية واسعة قد تحفظ الذكرة الإنكشارية، وتبقى ولاءات موازية، وتتوفر إمكانات تعبئٍ في المستقبل. لذلك اتجهت السياسة الرسمية إلى تفكيك هذا الارتباط عبر إجراءاتٍ استهدفت البنية المادية والرمزية للبكتاشية: إغلاق التكايا، تحويل بعضها إلى مساجد، مصادرة الأوقاف والإيرادات، نفي عدد من الشيوخ والدراوיש إلى مناطق يغلب فيها نفوذ الفقه السنّي الرسمي، بل ووُقعت عقوبات قاسية شملت الإعدام والنفي والمراقبة، مع تسويغ ديني يصف المعتقدات البكتاشية بأنها «خارجية عن الاستقامة السنّية».

وهنا تجلّى آلية «تسييس الروح» بأوضح صورها: حين كانت الطريقة نافعهً في بناء هوية عسكرية وإمبراطورية، تمنت بحمایة وانتشار. وحين صار ارتباطها بجيشه متمزّد خطراً على الدولة، تحولت الروحانية نفسها إلى ملف أمني وعقدي يُجسم بقراراتٍ عليها. ووفقاً بعض الدراسات، لم تكن الحملة مجرد إجراء إداري، بل رافقها خطاب «تصحيح العقائد» لإضافء شرعية دينية على عملية تفكير شبكة الولاء القديمة.

مع ذلك، لا ينتهي التاريخ عند 1826. فقد شهد القرن التاسع عشر لاحقاً درجات من التخفيف وإعادة الاندماج؛ إذ لم تختف البكتاشية من المجتمع العثماني تماماً، بل عادت بصورةٍ أو بأخرى مع تغيرات السلطة وتبدل الأولويات، وإن ظلت علاقتها بالدولة محفوظة بذرة. ثم جاء القرن العشرون، ومعه تحولات تركيا الحديثة، لتغلق التكايا والزوايا رسمياً في إطار مشروع علمنة الدولة، بينما استمرت البكتاشية بأشكال متعددة في البلقان - خاصةً في ألبانيا - ضمن مساراتٍ تاريخية مختلفة. إن خلاصة هذا المشهد ليست حكماً على التصوف في ذاته، بل درس في التاريخ السياسي: حين تربط الشرعية الروحية بمؤسسة السلاح، تتحول العبادة إلى رمز ولاء، وتحول الطرق إلى شبكات نفوذ، ثم لا تلبث أن تُستعمل كأوراق ترمي حين تغير خرائط القوة. وفي ذلك يتضح كيف يمكن لـ«الذكر» أن يستدعي لتوسيع الدولة، ثم يجرّم حين يصبح عنواناً لذاكرةٍ تخيف الدولة.

المصادر:

- Encyclopaedia Britannica: Janissary
- Encyclopaedia Iranica: BEKTĀŠIYA
- (ö. Karabulut (2017): The Rehabilitation of the Bektashi Order (1826-1876) (PDF)
- مقال أكاديمي: (The Ottoman Policy of "Correction of Beliefs" towards the Bektâşîs after the Vaka-i Hayriye (1826)
- مقال/دراسة: Janissaries-Bektashism relations and Bektashis in the revolts of Janissaries